# (١)

# الغزالي الشاب.. في قلب المعركة

# الغزالي الشاب.. في قلب المعركة

## بداية معرفتي بالشيخ الإمام

عرفتُ شيخنا الإمام الغزالي ــ غزالي هذا العصر ــ أول ما عرفته قارئاً له، في أواسط الأربعينات، وأنا في أواخر المرحلة الإبتدائية، وأوائل المرحلة الثانوية، طالب بمعهد طنطا الديني الأزهري، بعد أن ارتبطت بدعوة الإخوان المسلمين، كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، وركيزة التجديد الإسلامي، والعمل الجماعي، بعد سقوط الخلافة، وتمزق الأمة الواحدة إلى أمم متفرقة.

وكان الغزالي أحد كتاب الدعوة البارزين.

كان الغزالي يكتب في مجلة (الإخوان المسلمين) الأسبوعية، في باب ثابت تحت عنوان: (خواطر حرة)، وكان يشدني إليه فكره الثائر، وبيانه الساحر، وأسلوبه الساخر، فقد كنت أرى فيه ــ إلى جوار كونه داعية ــ أديباً من الطراز الأول. وكان الأدب والشعر في تلك المرحلة هو شغلي الشاغل، ومحور قراءتي واهتمامي، وكان أول ما قرأته أدب المنفلوطي والرافعي، وأحياناً العقاد. وكان الغزالي يحمل روح الرافعي وتألقه، وسهولة المنفلوطي وتدفقه، وتأمل العقاد وتعمقه، وانعقدت بيني وبين الغزالي الكاتب ــ على بُعد ــ صلة عقلية وروحية عميقة، من جانب واحد طبعاً، هو جانبي بحيث كنت أترقب المجلة، لأقرأ أول ما أقرأ فيها مقالتين: مقالة محمد الغزالي، ومقالة عبد العزيز كامل.

ولم يكن يخطر ببالي أن صاحب هذا القلم البليغ شيخ أزهري، فعهدي بالمشايخ الذين قرأت لهم ــ في بعض المجلات الدينية مثل مجلة (الإسلام) ــ أن

يكتبوا في غير الموضوعات التي يكتب فيها الغزالي، وبروح غير روحه، وطريقة غير طريقته.

ولكني فوجئت يوماً أنه وقّع على إحدى مقالاته: محمد الغزالي (الواعظ)، فسألت بعض الناس عن هذا الوصف الجديد (الواعظ): أهو (لقب) أم وظيفة؟ فأكد لي العارفون أنها وظيفة، وأن الغزالي واعظ أزهري، وشيخ معمم، وخريج كلية أصول الدين، التي أحبها وأتطلع للإنتساب إليها، فعمق ذلك ارتباطي الفكري والنفسي بالشيخ، وازددت إعجاباً به وحباً له، فقد أضيف إلى رابطة الدعوة، ورابطة الأدب، رابطة أخرى هي (الأزهرية)، فقد كان أبناء الأزهر في تلك الأيام يعتزون بالانتماء إليه، ويباهون به، ويعتبرونه قلعة الدفاع عن الإسلام والعربية، وكان على رأسه شيوخ لهم مكانتهم العلمية والدينية، على المستويين المحلي والعالمي، فكل أزهري ينبغ، يفرح به الأزهريون، ويضيف إلى رصيد الأزهر شيئاً جديداً.

وظللت أتابع الشيخ فيما يكتب، فإذا هو يخوض معركة بالغة الخطر، كان هو فارسها المقدم، ورائدها الأول، وكان سلاحه فيها قلمه الصُّلب الذي لا يكسر ولا يفلّ.

تلك هي المعركة ضد الظلم الاجتماعي، والإمتيازات الطبقية، والفوارق الاقتصادية الفاحشة، التي جعلت بعض الناس يزرعون القمح ويأكلون التبن، ويزرعون القطن ويلبسون (الخيش)، ويبنون العمارات الشامخة على أكتافهم، ويسكنون هم وعائلاتهم في (البدرونات) على أحسن الفروض! على حين يعيش آخرون غرقى في الذهب والحرير، دون أن يقدموا للحياة عملاً.

وفي هذه الفترة ظهر للشيخ كتابه البكر: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية)، وهو أول ما دخل به ميدان التأليف، وهو في مقتبل شبابه.

ومن نظر في الكتاب نظرة تأمل وإنصاف، رأى فيه أفكاراً

أصيلة[1]، ونظرات جديدة غير مسبوقة ولا مطروقة مثل: هل للفضائل أسباب اقتصادية؟، وهل للرذائل أسباب اقتصادية؟ الاستعمار الداخلي يمهد للإستعمار الخارجي. في هذا الباب يطرق فكرة نسبت بعد ذلك للمفكر الجزائري مالك بن نبي، وهي أن الاستعمار الغازي لا يأتي إلا بعد قابلية من الشعوب المستعمرة، والغزالي يذكر هذا المعنى، ويؤيده من القرآن بما ورد في قصة بني إسرائيل في أوائل سورة الإسراء، فحيث يتغلغل الفساد والإفساد في الداخل، يأتي تسليط العدو من الخارج.

لم يدرس الشيخ الغزالي الاقتصاد الوضعي، ولم يطلع على مدارسه ومناهجه ــ إشتراكية ورأسمالية ــ اطلاع المدقق الخبير، إنما عرف روح هذه الفلسفات وأساس هذه الأنظمة، واعتقد أن الإشتراكية ــ وهو يعني المثالية منها ــ تقف مع الكادحين والمستضعفين، الذين وقف دائماً في صفهم، باسم الإسلام.

وقد اشتبكت مرة ــ وأنا طالب بكلية أصول الدين ــ مع بعض الحقوقيين الذين درسوا شيئاً في علم المالية وعلم الاقتصاد؛ لأنه هاجم الشيخ الغزالي حيث كتب تحت عنوان كبير وهو: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) دون أن يدرس الاقتصاد ويحيط به!

قلت لهم: إن الشيخ لم يزعم ذلك لنفسه، ولكنه رأى أوضاعاً عوجاً، تتمسح بالإسلام ظلماً وزوراً، فأراد أن يبرىء الإسلام منها، وأن يبين موقف الإسلام الصحيح من هذا الإنحراف، وهذا ما بينه بجلاء في مقدمة الطبعة الأولى، إذ يقول:

---

(١) ضم هذا الكتاب على روعته بعض الأفكار السياسية والإقتصادية التي أثبتت الأحداث ضرورة مراجعتها. وقد راجعها الشيخ الغزالي بنفسه، وظهرت في الطبعة السابعة عن دار الصحوة.. بعد أن تبين أن سيئات الإقطاعيين أزكى من حسنات الثوريين (!!)، وأن الخطيئة عولجت بجريمة. (ع.ع).

«هذا بحث مجمل في موقف الدين من الأوضاع الاقتصادية، اعتمدت في موضوعه على الدراسة المجردة لنصوص الدين والفهم المستقل لآثاره الثابتة، ولم أجنح في هذه الدراسة إلى المقارنة بين نظام ونظام، أو المفاضلة بين مذهب ومذهب، من هذه الأنظمة والمذاهب التي تمخض عنها تطور الفكر الإنساني في العصر الأخير، فليس هذا ما يعنيني، ولست أملك العدة اللازمة لاستقصاء البحث فيه! وإنما ألفت هذه الرسالة ورتبت فصولها المحدودة لغاية واحدة، هي إعطاء القارىء صورة صادقة عن الفكرة الذاتية للدين، والروح العامة لمبادئه، والموقف الذي قد يقفه بإزاء الأفكار الاقتصادية المختلفة، وللقارىء بعدئذٍ أن يقارن ويفاضل ويستخلص من النتائج ما يشاء.

وحاشاي بهذا الكلام أن أقحم الدين فيما ليس له، أو أن أحمله من الآراء ما لا شأن له به، فما إلى هذا قد قصدت. كل ما أبغيه أن أنصف الدين من سوء الفهم، وسوء الاستغلال، فقد أنكرت الشيوعية الدين، لأنها حسبته مخدراً للشعوب، ومسكناً لآلام الطبقات المظلومة، وصارفاً لهمم أبنائها عن المطالبة بحقوقهم المضيعة. واحتقرت الرأسمالية الدين، إذ توسلت به إلى إشباع المطامع الجشعة وإقرار الفوارق الجائرة، وتعويق النهضات الحرة، والدين مظلوم بين من كفروه ومن حقروه: بين الشيوعية المتطرفة والرأسمالية المتعجرفة! ولا بد من أن نكشف عن حقائقه، وأن نبين عن معالمه، لنرد عنه سوء الفهم وسوء الاستغلال جميعاً. السبيل العادلة إلى ذلك هي تحديد موقفه من نصوصه نفسها.

ذلك أن الدين ــ للأسف الشديد ــ مصاب منذ القدم بإضافات زائدة، وأفكار فاسدة، شابت جوهره، وعكرت حقيقته، ولبَست تراث النبيين الهداة بأضاليل الشياطين الغواة، وعلينا أن نفصل الحق من الباطل، وأن نميز الخبيث من الطيب، حتى لا تختلط أمام النظرات السطحية أسباب الهدى وأسباب الضلال، فإذا تميز الخير عن الشر، وانفصل كذب الأرض عن وحي السماء، لم يبق ثمة

موضع لسوء الفهم وسوء الاستغلال!! ولم يبق على التنكر للدين إلا أقوام من المتنطعين والمتعنتين، وإلى هؤلاء لا يساق حديث ولا ينتظر إقناع.

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة ــ بشأن الدين وما يطرأ عليه من أوهام، وما يضاف إلى حقيقته من بدع وخرافات ــ فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحج: ٥٢ ــ ٥٤]... أجل فإن حقائق الدين من منابعه الفريدة الأولى لم تكد تسري في مجراها من هذه الحياة، حتى علقت بها من رواسب البيئات، ومخلفات القرون، وجهالات العامة، وشهوات الخاصة، ونزوات الحكام، ما ذهب بالكثير من صفائها ونقائها، حتى لتشبه ماء «النيل» في مجراه الأدنى، لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من الترشيح والتنقية ترده «سماوياً» كما كان. اهـ.

ثم ظهر له بعد ذلك كتابه الثاني في نفس الإتجاه: (الإسلام والمناهج الاشتراكية).

وكتب جملة مقالات في مجلة (الإخوان)، ضمها فيما بعد كتابُه الثالث: (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)، وكان ذلك قبل أن يصدر الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ كتابه: (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، وقد كتب في قائمة مراجعه ــ بالطبعة الأولى ــ كتابَيْ الغزالي: (الإسلام والأوضاع) و(الإسلام والمناهج).

وكان الشهيد سيد قطب قد أصدر مجلة (الفكر الجديد)، وهي مجلة ثورية تعني بالمسألة الاجتماعية، وتستلهم الإسلام، ولم تستمر أكثر من بضعة أشهر، وكان الغزالي أحد كتابها.

ثم جاءت محنة ديسمبر ١٩٤٨م، حين صدر قرار حل جماعة الإخوان، ومصادرة ممتلكاتها، والتنكيل بأعضائها، واعتقال عدد كبير منهم، وانتهى الأمر باغتيال الحكومة جهرة لمؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا.

وكان مما قدر الله لي أن أكون من المعتقلين في تلك المحنة التي أحالها الله منحة، وأنا طالب في السنة الخامسة الثانوية بمعهد طنطا الديني، وقد حجزت أكثر من شهر في (سجن) القسم الأول للشرطة في مدينة طنطا، مع مجموعة من الإخوة الزملاء[1]، ثم رحلنا إلى معتقل (الهايكستب) فترة قصيرة، ومنه إلى معتقل (الطور) في سيناء، حيث ركبنا الباخرة (عايدة) من السويس مجتازين خليج السويس إلى مقامنا الجديد في الطور.

ولا زلت أذكر تلك اللحظة التي هاج فيها ركاب الباخرة لسبب ما، وحدث شيء من الهرج والمرج، وكاد يفلت الزمام، فإذا شاب قصير القامة، مشرق الوجه، يلبس ثوباً أبيض، حاسر الرأس، يتوقد ذكاء وحيوية، يخاطب الركاب في حزم: أيها الإخوة، يجب أن نضبط أنفسنا، حتى نصل إلى مستقرنا الجديد، في أرض انطلقت منها شرارة الوحي المقدس، لتحرير أمة مستعبدة، من طغيان المتألهين في الأرض....

وقد لاحظت أنه حين بدأ كلامه، صمت الجميع كأن على رؤوسهم الطير، ولم يكد يتم كلمته الموجزة، حتى ساد الهدوء وسار المركب في أمان، وكأن شيئاً لم يكن.

قلت لبعض الأخوة من أهل القاهرة: من هذا المتكلم؟ قالوا: ألا تعرفه؟ إنه الشيخ محمد الغزالي!

---

(١) منهم من الأحياء: د. أحمد العسال، والمهندس حكمت بكير، والمهندس شفيق أبو باشا، والحاج إبراهيم الباجوري ــ حفظهم الله ــ وممن انتقل إلى رحمة الله: الأستاذ حسني الزمزمي، والحاج محمود عبية، والأستاذ جمال الدين فكيه، والزميلان الصديقان: محمد الدمرداش مراد، ومصباح محمد عبده ــ رحم الله الجميع.

كم كانت فرحتي غامرة بتلك اللحظة السعيدة. لقد لقيت الرجل الذي أحببته عن بعد، فها هو اليوم مني غير بعيد.

وشاء الله أن نوزع على أقسام معتقل الطور، فأكون من القسم الذي فيه الغزالي، وكان يسمى (الحذا). وكان حذانا رقم (١). فها أنذا ألتقي به صباح مساء.

كان الشيخ الغزالي إمامنا في الصلوات، وخطيبنا في الجمعة، ومدرسنا في الحلقات، مع أخيه ورفيقه العالم الفقيه الشيخ سيد سابق، كان يصلي بنا الصلوات الخمس، ويقنت بنا قنوت النوازل، وكان من دعائه في هذا القنوت: اللهم افكك بقوتك أسرنا، واجبر برحمتك كسرنا، وتول بعنايتك أمرنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللهم عليك بالظالمين!

وكان الشيخ يلقي علينا محاضرات في موقف الإسلام من استبداد الحكام، كانت نواة الكتاب الذي أصدره بعد الخروج من المعتقل، وهو: (الإسلام والاستبداد السياسي).

ومما لا ينسى: أن الإخوان كانوا قد اختاروا مسؤولاً عنهم، كما هي سنة الإسلام: «إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم»، وكان هو أستاذنا الداعية الكبير البهي الخولي، صاحب (تذكرة الدعاة) وغيرها من الكتب الأصيلة ــ رحمه الله ــ وجزاه عن الدعوة خيراً.

ولكن الأستاذ البهي قد استدعي إلى القاهرة، حيث وجه إليه اتهام في قضية تتعلق بالنظام الخاص.

فاجتمعت كلمة الإخوان على اختيار الشيخ الغزالي قائداً لهم داخل المعتقل، برغم أن في المعتقلين من هو أكبر منه سناً.

وفي تلك الآونة، كان العسكريون الذين يحكمون المعتقل يأكلون حق المعتقلين، من الأطعمة الجافة و(المعلّبات) التي تصرف لهم وباسمهم من الدولة.

وكان هؤلاء يحسبون أن المعتقلين أسرى تحت أيديهم ولا يملكون أن يقولوا: لِمَ؟ بلْه أن يقولو: لا.

ولكن الشيخ الغزالي خطب الجمعة، فألهب العواطف، وفجر بركان الثورة على هذا الظلم البيّن، وهذه السرقة العلنية، متحدياً أولئك الطغاة المتمردين على عدل الله، معلناً الحرب على ذلك الثنائي الدنس، المتمثل في الفرعونية الحاكمة بأمرها في بلاد الله، والقارونية الكانزة لمال الله عن عباد الله.

وما إن قُضِيت الصلاة، حتى قاد الشيخ مظاهرة تندد بالظلم وتعلن العصيان وتملأ هتافاتها الفضاء: تسقط اللصوصية المنظمة! تسقط سياسة التجويع!!

وكانت مفاجأة للعسكر حكام المعتقل، فلم يملكوا إلا أن يرضخوا لمطالب المعتقلين في تسليمهم المقررات الجافة من الأطعمة ليتولوا هم طبخها وتوزيعها بمعرفتهم.

وظللنا مدة لم تطل بمعتقل الطور، ثم فوجئنا بأن نودي علينا نحن طلاب المرحلة الثانوية، لينقلونا إلى معتقل (هايكستب)، قريباً من القاهرة، وقد قيل: إن ذلك تمهيد للإفراج عنا.

وما كان هذا بالشيء الذي سررنا به أو هششنا له، فقد كنا لا نريد فراق إخواننا بالطور، وعلى رأسهم الشيخ الغزالي.

وبعد رحلة قاسية في صحراء سيناء، كانت مطايانا فيها (اللوريات) المكشوفة التي حشرونا فيها كالأنعام أو الأبقار، يكوينا فيها وهج الشمس بالنهار، ويعضنا فيها برد الصحراء بالليل، حتى وصلنا إلى (هايكستب)، فقضينا فيه عدة أشهر ثم غيروا رأيهم، فأعادونا مرة أخرى إلى الطور، ظانين أنهم بهذا يضايقوننا ويضيقون علينا، وما دروا أننا كنا جد مسرورين، فقد التأم الشمل، وائتلفت حبات العقد المتناثرة.

وكان من حسن حظي أن أكون في نفس القسم الذي يؤمه ويخطبه الغزالي، فحمدت الله تعالى، وكنا في شهر رمضان المبارك، وكان الشيخ يصلي بنا التراويح، ثماني ركعات يقرأ فيها بجزء من القرآن الكريم، فعشنا مع القرآن كله، فسمعته منه غضا طرياً، وهو يحفظه عن ظهر قلب، ويتلوه في صلواته بانتظام، لا يخْرم منه حرفاً، وكان رمضان بصيامه وقدومه ودروسه، مأدبة روحية حافلة، وخصوصاً وراء إمام كالغزالي، تصلك بالله تلاوته، ويدلك على الله كلامه، ويذكرك بالآخرة عمله وسلوكه.

وفي أواخر شهر رمضان، أذِن الله بسقوط وزارة الطاغية الأثيم إبراهيم عبد الهادي، وبدأت الإفراجات، وكنت في أوائل من أفرج عنهم، ولم يشب فرحة الإفراج عندي إلا البعد عن الشيخ الغزالي.

ثم ازددت اقتراباً من الشيخ، في فترة الدراسة بكلية أصول الدين، فكنت وأخي وزميلي أحمد العسال على صلة وثيقة به، نزوره، ونتحدث إليه، ونستمع منه، وكثيراً ما كان يدعونا إلى الغذاء في بيته في (درب سعادة) بحي الأزهر، فنشبع من جيد طعامه، كما نشبع من جيد كلامه، هذا لعقولنا، وذاك لبطوننا.

وقد وجدنا الشيخ الذي يشتد ويحتد في نزاله الفكري، فيهدر كالموج، ويقصف كالرعد، ويزأر كالليث، حتى إنك لتحسبه في بعض ما يكتب مقاتلاً في معركة، لا مجادلاً في قضية، وتحسب القلم الذي في يده، السيف أو الرمح في يد ابن الوليد! وجدناه ــ عن كثب ــ إنساناً رقيق القلب، قريب الدمعة، نقي السريرة، صافي الروح، حلو المعشر، رضي الخلق، باسم الثغر، موطأ الأكناف، عذب الحديث، سريع النكتة، بسيطاً متواضعاً، هيناً ليناً، بعيداً عن التكلف والتعقيد والتظاهر والادعاء، تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفاً إنسانياً، ويهتز خشوعاً وتأثراً إذا ذكر الله والدار الآخرة، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه، يعترف لكل ذي موهبة بموهبته، لا يحسد ولا يحقد، يكره الظلم والتسلط على عباد الله، يقول بصراحة: لا أحب أن أتسلط على أحدٍ، ولا أن يتسلط علَيَّ أحد.

كان الغزالي بعد خروجنا من المعتقل أواخر سنة ١٩٤٩م، هو اللسان الأول الناطق باسم الدعوة إلى الإسلام، والمحامي الأول عن حرماته ومفاهيمه.

فهو يسطر المقالات الممتعة في مجلة (المباحث) التي استأجرها الإخوان، لتعبر عن رسالتهم، ويؤلف الكتب التي تخاطب عقل المسلم وقلبه، وتعمل عملها في إيقاظ الوعي الإسلامي العام.

وهو يقف بالمرصاد لكل متطاول على قيم الإسلام وأحكامه، ليرسل عليه شواظاً من نار، مسلحاً بقلم لا يصدأ، ولا يفل، ولا يستكين.

وقد سعدت مصر في تلك المرحلة بزيارة الداعية الإسلامي الهندي الشاب المتوقد روحانية وحيوية: السيد أبي الحسن علي الحسني النَدْوي، الذي كنا عرفناه من خلال كتابه القيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، وقد تعرف على الغزالي في لقاءات شتى، وسافر معه في رحلات دعوية متعددة، وسجل ذلك في كتابيه: (مذكرات سائح في الشرق العربي) و(مسيرة الحياة) فيقول:

«فقد خرجت في تلك الفترة مع الشيخ محمد الغزالي ــ الذي هو أكبر كاتب وباحث إخواني، وأوثق ترجمان للجماعة ــ إلى كثير من قرى مصر وأريافها مراراً وتكراراً».

صدر له في هذه الفترة جملة من الكتب التي اشتهرت وذاع صيتها في عالم الثقافة والفكر، مثل: (الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين)، (الإسلام والاستبداد السياسي)، (تأملات في الدين والحياة)، (عقيدة المسلم)، (خلق المسلم).

ومن أشهر كتبه في تلك المرحلة: كتاب: (من هنا نعلم)، وهو كتاب رد به على كتاب: (من هنا نبدأ) للشيخ خالد محمد خالد، الذي كان صديقاً للغزالي من قبل، وكانا قد تعارفا وتعاونا على العمل للإسلام، وإن كان ذاك في الجمعية الشرعية، وهذا في الإخوان.

وارتضيا أن يكوّنا لجنة لنشر الثقافة الإسلامية الصحيحة، تحت عنوان: (الدين في خدمة الشعوب)، رداً على الشيوعيين الذين يزعمون أن (الدين أفيون الشعوب)!.

وكان الشيخ خالد قد وعد بنشر كتاب في هذا الاتجاه بعنوان: (يا أربعمائة مليون هبوا)! يخاطب فيه المسلمين في أنحاء الأرض، وكان هذا عددهم الذي يذكر في ذلك الحين.

فلما خرجنا من المعتقل، فوجىء الجميع بأن الشيخ خالد قد غير اتجاهه إلى زاوية مقدارها ١٨٠ درجة، وأصدر كتابه الجديد: (من هنا نبدأ)، الذي صفقت له، وروّجت له كل القوى المعادية للإسلام: شيوعية، وصليبية، وماسونية، وعلمانية.

وهنا تصدى له الغزالي، في سلسلة مقالات قوية، نقد فيها شبهات خالد ورد على دعاويه ثم جمعت هذه المقالات في كتاب: (من هنا نعلم)، الذي كان أقوى ما رد به على الكتاب المذكور، مع رفق وأدب، ورعاية لرابطة الود القديم، وكان الغزالي ــ رغم خلافه لخالد ــ يظن به خيراً، وقد صدقت الأيام ظنه.

والأستاذ خالد ــ والحق يقال ــ ليس كاتباً عادياً، إن له قلماً يفتن قارئه برشاقة عبارته، وسحر أسلوبه، وروعة بيانه، وقوة معاصرته، لا يجحد بذلك إلا مكابر. ثم إنه رجل حر، يقول ما يؤمن به، ويكتب ما يريد لا ما يراد منه، فهو من النوع الذي لا يباع ولا يستأجر، فكان لا بد أن يتصدى له قلم في مثل مقدرته وإخلاصه لما يدعو إليه إن لم يزد عليه. ولم يكن في الساحة مثل الغزالي، الذي كان كتابه كما قال الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر!

وصدر بعد ذلك للغزالي كتاب آخر في المواجهة والرد أيضاً على من يتحاملون على الإسلام، ذلكم هو كتاب: (التعصب والتسامح بين المسيحية

والإسلام)، رداً على كتاب أصدره أحد النصارى الأقباط، افترى فيه على الإسلام، واجترأ على حماه، لم يشأ أن يذكر اسم الكتاب ولا اسم مؤلفه، حتى يموت في مهده، كل ما ذكره عن المؤلف: أنه صاحب منصب مرموق في الدولة.

وقد كلف الأستاذ حسن الهضيبي ــ مرشد الإخوان حينئذٍ ــ أن يتولى الرد على الكتاب بالعلم والحجة، بلا سب ولا تجريح.

ومن عايش هذه المرحلة من تاريخ مصر في عهد الملكية، يعلم أن كتب الغزالي ومقالاته كان لها دور هام في إيقاظ العقول، وتنبيه القلوب، وإذكاء المشاعر، وتهيئتها للثورة على الأوضاع الظالمة.

ظلت الكتب تتوالى، في ميادين الدعوة المختلفة، وأبرزها: (فقه السيرة)، ألفه الشيخ في رحاب المسجد النبوي، وفي ظلال الروضة الشريفة، حين كان مديراً للتكية المصرية بالمدينة المنورة. وهو كتاب يتجلى فيه قلم الأديب، وفكر العالم، وروح الداعية، وعاطفة المحب للرسول العظيم ﷺ. حتى ذكر أنه كثيراً ما كان يكتب ودموعه تنهمر على الورق الذي يكتب فيه، فيختلط الدمع بالمداد!!

كما ظهر له كتابان ــ أثناء خلافه مع الأستاذ الهضيبي ــ فيهما كثير من المرارة الممزوجة بالحدة والعنف في نقده للحركة الإسلامية وقيادتها، وهما: (في موكب الدعوة) و(من معالم الحق)، وقد اعتذر الشيخ فيما بعد عما صدر منه فيهما، وسنعرض لذلك في حينه.

وظهر له مجموعة من الكتب في مجال التنوير[1] والتبصير بحقائق الإسلام، وفي مجال التنبيه والتحذير من أعداء الإسلام، من هذه الكتب:

ــ الاستعمار أحقاد وأطماع.

---

(١) التنوير الصحيح ــ في نطاق النور الإلٰهي الذي يمثله الإسلام بمصادره الصحيحة وتوحيده الصحيح وصياغته للحياة فكراً وتشريعاً وأخلاقاً.. وليس ذلك التنوير الإلحادي والانحلال الذي تروج له أبواق التزوير والعلمنة من المنافقين والكافرين على سواء (ع.ع).

ـ ظلام من الغرب.
ـ ليس من الإسلام.
ـ كيف نفهم الإسلام.
ـ كفاح دين.
ـ جدد حياتك.
ـ الجانب العاطفي من الإسلام.
ـ هذا ديننا.
ـ الإسلام في وجه الزحف الأحمر.
ـ دفاع عن العقيدة والشريعة.
ـ حقوق الإنسان بين الإسلام وميثاق الأمم المتحدة.
ـ قذائف الحق.
ـ معركة المصحف في العالم الإسلامي.
وغيرها من الكتب...

وفي السنوات الأخيرة، جند الشيخ قلمه، لكشف التدين المغشوش أو المغلوط، ومطاردة الأفهام السقيمة للإسلام، التي ابتليت بها الساحة الإسلامية في هذا الزمن، والتي شغلت الناس بالمسائل الصغيرة في الدين، على حساب القضايا الكبرى. وقد بدأ ذلك من قديم، كما يتجلى ذلك في كتبه: (تأملات في الدين والحياة) و(ليس من الإسلام) و(ركائز الإيمان بين العقل والقلب).

وقد صدرت له في هذا جملة من الكتب الناقدة، ابتدأها بكتابيه الشهيرين:

(أ) (دستور الوحدة الثقافية للمسلمين)، وبه شرح الأصول العشرين للشهيد حسن البنا.

(ب) (مشكلات في طريق الحياة الإسلامية)، وهو الكتاب الأول من كتب مجلة (الأمة) القَطَرية، الذي قدم له مدير تحريرها الأستاذ عمر عبيد حسنة، بمقدمة ضافية عن الشيخ وجهوده، وآثاره في ميدان الثقافة والفكر الإسلامي.

وسنعرض لذلك فيما بعد.

لقد كانت كتب الشيخ ومقالاته في شبابه صرخات عالية من شأنها أن توقظ النيام، ولم تكن همسات خافتة تبعث على التثاؤب، وتنيم اليقظان! كانت ثورة على الظلم والطغيان قبل أن يسمع الناس كلمة (الثورة).

وكان كثير من الشباب يحفظ كلمات الغزالي ويرددها لما تحمله من نصاعة البيان، وقوة الإيمان، وروح القرآن، وكان فيها من الحرارة والحيوية، ما يلائم توثب الشباب، وطموح الشباب.

أذكر أن الأخ عبد الله العقيل[1] ــ حين كان يدرس في كلية الشريعة بالأزهر في أوائل الخمسينات ــ كان يحفظ مقدمة الطبعة الثانية لكتاب: الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ومطلعها:

«لم تستذل ــ في هذا العصر ــ شعوب كما استذلت شعوب الشرق، ولم يستغل شيء ــ في هضم حقوقها ــ كما استغل الدين، لقد أنطقوه حيث يجب عليه أن يسكت وأخرسوه حيث يجب أن يرسل الصراخ العالي، كما يصرخ الحارس اليقظ إذا رأى جرأة اللصوص الوقحين»

وفي آخرها يقول:

«يا ضحايا الكبت والفاقة والحرمان، إن الشفاه التي تأمر بإذلالكم يجب أن تقص، والأوضاع التي تغتال حقوقكم يجب أن تقصى، والفراغ الذي خامر أفئدتكم تحت وطأة الاستعباد، يجب أن تنزاح غمته إلى الأبد».

## المبارز الشريف

لقد كانت تلك المرحلة من حياة الغزالي مرحلة (المبارزة) للباطل وأعوانه ودعاته، ولكنها مبارزة متميزة، فإن من عاشر الغزالي عرف فيه طبيعة الفرسان

---

(١) الأمين العام المساعد الآن لرابطة العالم الإسلامي.

الشرفاء، إنه (مبارز) واثق من نفسه، لا يفر من معركة، ولا يطعن من الخلف، ولا يهاب المواجهة، ولو مع أعتى العتاة، ولا ينازل ضعيفاً، أو يتبع مدبراً، أو يجهز على جريح!

لقد رد على الأستاذ محمد خالد في كتابه: (من هنا نبدأ)، ولكن عندما اقترح بعض الناس أن يجرده من شهادة العالمية، استنكر الغزالي ذلك ولم يقبل أن تدخل السلطة طرفاً في الموضوع، متكئة على الأزهر، وقال في مقدمة كتابه: (من هنا نعلم):

«إن حرية الرأي لا تعني حماية الخطأ وإعطاءه حق الحياة.

وأقصى ما يناله الخطأ أن يعيش ريثما يعدم ويتوارى، والطريق التي نؤثرها أن نحارب الفكرة بالفكرة.

ونحن الذين نعمل للإسلام لا نهاب أي هجوم عليه، لأننا موقنون أنه سوف ينكسر على حدوده.

ولقد تحدث الناس أن الأزهر ربما سحب شهادة العالمية من الشيخ خالد، وهذا إجراء أرى أن التعليق عليه واجب.

فإن الأزهر يكيل بكيلين، بل بعدة مكاييل في هذا الموضوع، فقد أصدر قراراً ضد الشيخ علي عبد الرزاق ــ صاحب كتاب: (الإسلام وأصول الحكم) ــ ثم عاد فأبطله! واكتفى بنقل الشيخ عبد المتعال الصعيدي من الكليات إلى القسم العام ــ وقد زعم أن الأمر بالحدود المستقرة في الكتاب والسنة للندب لا للوجوب، وأن الأمر لا يقتضي التكرار الدائم! إلخ... ــ وجرم خالد هو جرم هؤلاء الأشياخ».